

المستشار الهضيبي يخلق بعاطفته حول شخصية الإمام حسن البنا



الاثنين 24 فبراير 2020 08:19 م

كتب المستشار حسن الهضيبي مقالتين كانتا من أروع ما كتب عن الإمام الشهيد حسن البنا، فيهما عاطفة جياشة وروح مُحلِّقة، ومشاعر رقيقة سامية وفهم عميق للدعوة إلى الله وأصولها وقواعدها، تُعبّر تعبيرًا دقيقًا عمّا في شخصية الأستاذ الهضيبي من صفاتٍ فذّةٍ بنفس القدر التي تُعبّر فيه عمّا في شخصية الإمام البنا من عبقرية نادرة.

1- المرشد المُلهِم

"عرفته أول ما عرفته من غرس يده، كنتُ أدخلُ المدن والقرى فأجد إعلانات عن (الإخوان المسلمين) دعوة الحق والقوة والحرية، فخلت أنها إحدى الجمعيات التي تُعتنى بتحفيظ القرآن، والإحسان إلى الفقراء، ودفن الموتى، والحثّ على العبادات من صومٍ وصلاة، وأن هذه قصارها من معرفة الحق والقوة والحرية.. فلم أحفل بها.

فكثير هم الذين يقرءون القرآن دون أن يفقهوه، ودون أن يعملوا به، وأكثرهم الذين يصلون ويصومون ويحجون دون أن يكون لذلك أثر في نفوسهم، والإحسان إلى الفقراء كثيرًا ما يوضع في غير موضعه.. ولم أحاول- كما هي العادة- أن أعرف شيئًا عن (الإخوان المسلمين).

ثم التقيتُ يومًا بفتيةٍ من الريف أقبلوا عليّ- على غير عادة الأحداث مع من هم أكبر منهم سنًّا ومركزًا- يحدثونني، فوجدتُ عجبًا؛ فتيةً من الريف، لا يكاد الواحد يتجاوز في معارفه القراءة والكتابة، يحسنون جلوسهم مع من هم أكبر منهم في أدبٍ لا تكلف فيه، ولا يحشّون بأن أحدًا أعلى من أحد، ويتكلمون في المسألة المصرية كأحسن ما يتكلم فيها شاب متعلم مثقف، ويتكلمون في المسائل الدينية كلام الفاهم المتحرر من رق التقليد، ويبسطون الكلام في ذلك إلى مسائل مما يحسبه الناس من صرف المسائل الدينية.

ويعرفون من تاريخ الرسول- وتاريخه هو تاريخ الرسالة- ما لا يعرفه طلاب الجامعات.. فعجبت لشأنهم وسألتهم: أين تعلمتم كل ذلك؟! فأخبروني أنهم من (الإخوان المسلمين)، وأن دعوتهم تشمل كل شيء، وتُعتنى بالتربية والأخلاق والسياسة، والفقر والعنى، والاقتصاد وإصلاح الأسرة، وغير ذلك من الشئون صغيرها وجليها.. من ذلك الوقت تتبعت حركة (الإخوان المسلمين)، وصرت أقرأ مطبوعاتهم، وأتصل بهم دون أن أعرف الداعية إلى ذلك، ولكنني عرفته من غرس يده قبل أن أعرف شخصيته.

كان يوم خرجت أنا وبعض زملائي لمشية العصر على حافة النيل، فوجدنا جمعًا من الجوّالة؛ سألناهم عن شأنهم، فعلمنا أن "حسن البنا" سيلقي خطبةً في حفلٍ الليلة، فوافينا الحفل وسمعنا "حسن البنا"..

لقد تعلقت أبصارنا به، ولم نجد لأنفسنا فكاهًا من ذلك، وجلتُ- والله- أن هالته من نور أو "مغناطيسًا" بوجهه الكريم، فيزيد الانجذاب إليه، خطب ساعةً وأربعين دقيقةً، وكان شعورنا فيها شعورَ الخوف من أن يفرغ من كلامه، وتنقضي هذه المتعة التي أمتعنا بها ذلك الوقت.

كان كلامه يخرج من القلب إلى القلب شأن المتكلم إذا أخلص النية لله.. وما أذكر أنني سمعت خطيبًا قبله إلا نمّيت على الله أن ينتهي خطابه في أقرب وقتٍ.. كان كالجداول الرقاق الهادئ، ينساب فيه الماء، لا علو ولا انخفاض، يخاطب الشعور فيلبيه، والقلب فيملؤه إيمانًا، والعقل فيسكب فيه من المعلومات ألوانًا.

انقضى وقت طويل دون أن ألتقي به، ولما أذن الله بذلك التقينا.. فإذا تواضع جُمًّا، وأدبٌ لا تكلف فيه، وعلمٌ عزيزٌ وذكاءٌ فريدٌ، وعقلٌ واسعٌ مُلِمٌّ بالشئون جليها وحقيها، وآمالٌ عراض.. كل ذلك يحقُّه روح ديني عاقل، لا تعصب فيه ولا استهتار.. ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (البقرة: من الآية 143).

إنه كان مُلهِمًا، وأقسم أنني التقيتُ به وعاشرته، فما سمعتُ منه كلمةً فيها مغمز في عرض أحد، أو دين أحد، حتى من أولئك الذين تناولوه بالإيذاء والتجريح في ذمته ودينه، وكان في ذلك ملتزمًا حدًّا ما أمره الله.

هذا هو "حسن البنا" الذي قتلوه.. لقد قتلوا اخطر داعية ظهر على الارض منذ قرون، والان فإن العرس الذي عرف في "حسن البنا" قد نما وترعرع، وصارت دعوته إلى كتاب الله مستقرة في القلوب، وصار تلاميذه يعلمون الناس ما علم، ويلهمونهم ما ألهم، وزاد عددهم على الأسياء والضراء حتى أصبحوا أقوى جدلاً مما كانوا، وأعرف بشئون الحياة، وأصبر على المظالم، وأعلم بأن أعداء دعوتهم أكثر من أنصارهم، فأعدوا أنفسهم لكفاح طويل في سبيلها.

ولقد صار (الإخوان المسلمون) اسماً لا يعبر عن منظمة في مصر؛ وإنما يعتبر عنواناً ل نهضة الإسلام وبعثه وحيوته في جميع البلاد الإسلامية من المحيط إلى المحيط.. فاسم (الإخوان) في إندونيسيا والباكستان، وكل البلاد العربية، وصارت دعوتهم رعباً للمستعمرين وأنصار المستعمرين، والمنافقين والظالمين؛ لأن الباطل يفر من الحق أينما كان، وحيثما وجد.

2- حسن البنا.. الداعية المربي

"كنا في القطار بأقصى الصعيد فأشار أحد رفقائي إلى الجبل فرأيت ناساً يصعدون أو ينزلون كأنهم من فرط ارتفاعه في أحجام النمل- وقال: هنا صعد حسن البنا وصعدنا معه ولقينا من المشقة حتى وصلنا إلى قوم كأنهم من طول ما احتبسوا في هذا المكان فيهم من الإنس جفوة- وجعل الأستاذ الإمام طيب الله ثراه ورضي عنه وأرضاه في الجنة- يؤنس من وحشتهم وبرق من طباعهم ويدعوهم إلى كلمة الله وكتاب الله وسنة رسول الله.

وتحت شجرة قليلة الرواء كأنها أسنت قبل الأوان من كثرة ما طمئت قال آخر: هنا نزلنا من الأوتوبيس نقصد إحدى القرى ونظرت فإذا لحية الأستاذ الإمام قد صارت بيضاء مما علاها من التراب وملابسه قد اختفى لونها لما غشيها لا أقول من وعناء السفر- فالوعناء شيء قليل-، وفتحنا الشنطة وأخرجنا منها الفرشاة وجعلنا نزيل العبرة التي لحقتنا ونصلح من هدامنا ثم مضينا إلى القرية ندعو أهلها إلى كلمة الله وكتاب الله وسنة رسول الله.

ثم وصلنا إلى إحدى المحطات ولعلها "إدفو" فقال آخر: إن الأستاذ الإمام بات على كرسي أمام هذه الخمارة، وذلك أن أحد الأشخاص دعاه لافتتاح شعبة فكتب إليه بأنه حاضر في قطار كذا وكان الخطاب لم يصله، ولم يجد في المكان من الأبقاط إلا صاحب الحانة يهم بإغلاقها فترق له وأعطاه كرسيًا بيث عليه حتى الصباح وأغلق حانته وانصرف، وفي الصباح ذهب الأستاذ إلى القرية يدعو أهلها إلى كلمة الله وكتاب الله وسنة رسول الله.

وانتقلنا إلى الوجه البحري وجبنا فرى إحدى المديرية في أسبوع فما وجدنا قرية إلا وصل إليها الأستاذ على غير ما وصلنا، فقد وصلنا في سيارات تنقلنا من مكان إلى مكان نختصر الوقت ونقرب المسافات، ومهما لقينا في ذلك من مشقة فإنها لا تُقاس بالمشقة التي لقيها الأستاذ الإمام حيث كان يصل إلى هذه القرى سيرًا على الأقدام أو يركب الدواب، قرى سحيقة بعيدة عن العمران نسيها الناس ونسيها الحكومات حتى طاف بها طائف من رحمة الله ونوره فدعاها الداعية إلى كلمة الله وكتاب الله وسنة رسول الله.

هكذا فعل حسن البنا بث دعوته ونشر راية القرآن ورعى جيلًا على الإيمان والفضيلة والطهر والعفاف والعزة والصدق والأمانة- رعى الجيل فردًا فردًا وجعل كل فرد مدرسة لمن يأتي بعده، وأحيا نفوسًا كاد الجهل يقتلها وأوجد أبطالاً في الحرب يقدون دينهم وأوطانهم بأرواحهم- بايعوا الله على ذلك فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً.

وهكذا الدعوات تنشأ في قلب فرد ثم في اثنين ثم في ثلاثة إلى أن يعم نورها القلوب فيستضيء الناس به ويقبلون عليه وبأخذ كل نصيبه منه وهكذا، ولا يمكن أن تبدأ الدعوات بحشد الناس في اجتماعات، ولا بأن يقول لهم الناس كونوا على فكرة فيكونون.

كانت الدعوة إلى كتاب الله وسنة رسول الله قد ملكت عليه نفسه وعقله فضحى لها وعانى في سبيلها ما ذكرت نموذجًا منه في رحلاته، لم يكن كالزعماء الذين يجلسون في بيوتهم أو على مكاتبهم وينادون بالأفكار والآراء ويحسبون أنها استهوت نفوسهم وأن الدنيا قد دانت لهم بما تجتمع حولهم من جموع لا يحصى عددهم حتى إذا ألمت بهم ملة لم يجدوا أحدًا لأنهم في الحق لم يجتمعوا على حق وإنما جمعتهم الشهوات والمنافع وجمعهم الهوى ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ (الجاثية: من الآية 23).

ولم يكن كالزعماء لا يذهبون إلا إلى العواصم في القطارات الفاخرة؛ حيث يلقون من أنواع التكريم ما يُزجيه لهم المنافقون، لكنه كان يبحث عن القلوب المؤمنة المخلصة الثابتة على إيمانها الوافية في إخلاصها، ويعلم أن العبرة ليست بكثرة العدد وإنما العبرة بعدد المؤمنين الذين تندك الجبال وتزول ولا يزولون عن عقيدتهم ولا ينزلون عن حكم ربهم.

كان يحترق في الدعوة ويؤتيها من وقته ونفسه وما يكسبه من مالٍ ما جعله مثلًا في التضحية والبذل- التضحية بالنفس والتضحية بالمال- كل ذلك حبًا في الله وابتغاء مرضات الله- لم يسترح ساعة ولم يقتن ثروة ولا كان له عرض من أغراض الدنيا إلى أن لقي ربه راضيًا مرضيًّا، وذلك جزاء المتقين".